السنة الثانية والستون

آذار – نيسان ١٩٦٨

الشاعر ابو القاسم الشابي

(١٩٠٩–١٩٣٤)

بقلم الاب رفائيل نخله اليسوعي

ابو القاسم الشابي التونسي قد اشتهر في العالم العربي بديوانه « اغاني الحياة » : الذي نشرت دار صادر في بيروت ، سنة ١٩٦٥ ، مقتطفات عديدة منه ، وقد اتخذناها موضوعاً لهذه المقالة النقدية .

ذلك الفتى الذي عاجلته المنون ، وهو ابن نحو خمسة وعشرين عاماً . قد نغصت حياته القصيرة عدة مصائب اذاقته اهول الآلام . في شرخ شبابه هام بفتاة فقضت نحبها قبل ان يقترن بها ، فاضطُر اهله الى تزويجه بغيرها ، مؤملين ان يسلو غمه الفادح ، فخاب رجاؤهم امرّ الخيبة . بُعيد ذلك مات ابوه ، فتحتم عليه ان ينوب منابه في الاهتمام باعضاء عائلته ، فرزح تحت ذلك الحمل الباهظ ، وما لبث ان أصيب بانتفاخ في القلب : اعجز حيَل الاطباء ، فكان سبب موته العاجل .

تلك البلايا الشديدة المتواصلة قد صبغت شعره صبغة الحزن اليائس والتشاؤم المطلق وتثقيل العزلة على معاشرة الناس .

قلما عالج في شعره فلسفة الحياة . بيد انه يزعم ان البشر خاضعون لقدر اعمى . فاحش القساوة :

يا ليل . ما تصنع النفس التي سكنت ... هذا الوجود . ومن اعدائها القدر ؟...
قد كبّل القدر الضاري قرائحه ... فما استطاعوا له دفعاً ولا حذروا ...
وقيّمه القدر الجبار سخريةً ... بالكائنات . تضاحك . ايها القدر !
تمشي الى العدم المحتوم باكيةً ... ضوائف الخلق والاشكال والصور .
وانت فوق الاسى والموت مبتسم : ... ترنو الى الكون يبنى ثم ينتثر !

من جهة اخرى يكره كل الناس . وكثيراً ما عبّر عن ذلك الشعر المطلق . ولا سيما في « مناجاة عصفور » :

ما في وجود الناس من شيء به ... يرضي فؤادي او يُسرّ ضميري :
فاذا استمعت حديثهم : الفيته ... غثّاً يفيض بركة وفتور :
واذا حضرت جموعهم : الفيتني ... مما بينهم كالبلبل المأسور .
متوحداً بعواطفي ومشاعري ... وخواطري وكآبتي وسروري ...
آه من الناس الذين بلوتهم ... فقلوبهم في وحشتي وحبوري !
ما منهم الا خبيث غادر ... متربص بالناس شر مصير .
ويودّ لو ملك الوجود بأسره ... ورمى الورى في جاحم مسجور !

مع ان اباه قد اتقن تهذيبه الاسلامي كل الاتقان ؛ نراه يعزو الى الاله الرحمان الرحيم ، بقصيدته « في قيود الاحلام » ؛ منح الوجود للبشر بقصد إشقائهم ، وذلك تجديف محض :

لتعس الورى شاء الاله وجودهم: ... فكان لهم جبلٌ وكان لهم فهمُ .

فضلاً عن ذلك يعدّ رجال الدين المسلمين والنصارى خداعين مضلّين لرعاياهم :

مُلئ الدهر بالخداع ، فكم قد ... ضلل الناس من إمام وقس !

الشعر الوطني قليل جداً في ديوانه . في « تونس الجميلة » يعبّر مواطنيه باضطهاد المصلحين من اهل بلادهم :

كلما قام في البلاد خطيب موقظٌ شعبه. يريد صلاحهْ ؛
اخـــذوا صوتـــه الالهي بالعســف . امـــاتوا صداحه ونواحه .
البسوا روحه قميص اضطهاد فـــاتك شائك يردّ جماحه ...
انا: يا تونس الجميلة . في لُجج الهوى قد سبحت اي سباحه ؛
شرعتي حبك العميق . واني قد تذوقت مُرّه وقراحه ...
لا ابالي: وان أريقت دماتي : فدماء العُشاق دوماً مُباحه ...
ان ذا عصر ظلمة . غير اني من وراء الظلام شمت صباحه ؛
ضيّع الدهر مجد شعبي . ولكنْ سيردّ الحياة يوماً ويشاحه !

يكرر ذلك النغم اللاذع في « النبي المجهول » :

ايها الشعب . انت طفل صغير لاعبٌ بالتراب . والليل مُمْسٍ ؛
انت في الكون قوة لم تسُسْها فكرةٌ عبقرية ذات بأس ؛
انت في الكون قوة كبّلتها ظُلُمات العصور من امس امس !
والشقيّ الشقي من كان مثلي في حـاسيّ ورقة نفسي !

في « زئير العاصفة » يتنبأ بنهوض ابطال من مواطنيه يخلعون عن ذواتهم نير الحكام الغاشمين ، ويرفعون بلادهم الى ذروة العز :

فيا ايها الظالم المعتّر خده ؛ رويدك: ان الدهر يبني ويهدمُ !
سيثأر للعز المحطّم تاجـه رجال: اذا جاش الردى، فهمُ هُمُ !
رجال يرون الذل عاراً وسُبّةً ولا يرهبون الموت: والموت مُقدم !
وهـــل تعتلي الا نفوس ابيّة تصدّع اغلال الهوان وتحطم ؟

لا يكتفي بتهديد ظُلام وطنه بسوء مصيرهم ؛ بل يعمم وعيده على جميع المصرّين على وطء اقدس حقوق الناس . « الى طُغاة العالم » يوجه هذا التعنيف الشديد :

الا : ايهـــا الظالم المستبدُ ؛ حبيب الظلام ؛ عدوّ الحياهْ ؛
سخرت بأنات شعب ضعيف ؛ وكفك مخضوبةٌ من دماه !...
رويدك ؛ لا يخدعنك الربيع وصحو الفضاء وضوء الصباحْ ؛
ففي الافق الرحب حول الظلام وقصف الرعود وعصف الرياح !
حذار: فتحت الرماد اللهيب ؛ ومن يذر الشوك يجن الجراح !

« الى الطاغية » و « قالت الايام » هي ايضاً صرخات تهديد لظالمين. ولا مراء في كونها من اجمل قصائده.

في « شعري » يبوح لنا بالغايات النبيلة التي يقصدها بنظم قصائده:

شعري نفائسة صدري ... ان جاش فيه شعوري :
لولاه ما انجاب عني ... غيم الحياة المطير ...
لا انظم الشعر . ارجو ... به رضاء الامير .
بمدحة او رثاء ... تهدى لرب السرير .
حبي . اذا قلتُ شعراً . ... ان يرتضيه ضميري .

« فكرة الفنان » يبدي فيها نظريته الفائلة في كون سعادة الانسان مبنية على الشعور . لا على العقل . العاجز عن ادراك اسمى الحقائق . ولو بذل اقصى الجهود :

عش بالشعور وللشعور . فانما ... دنياك كون عواطف وشعور .
شيدت على العطف العميق . وانها ... لتجفّ لو شيدت على التفكير ...
والعقل : رغم مشيبه ووقاره . ... ما زال في الايام جد صغير :
يمشي فتصرعه الرياح : فيثني ... متوجعاً كالطائر المكسور .
ويظل يسأل نفسه متفلسفاً ... متغطساً في خفة وغرور :
عما تحجّبه الكواكب خلفها ... من سر هذا العالم المستور .
وهو المهشّم بالعواصف : يا له ... من ساذج متفلسف مغرور !
إفتح فؤادك للوجود وخلّه ... لليمّ : للامواج : للديجور :
للثلج تنشره الزوابع : للاسى : ... للهول : للآلام : للمقدور ...
فتعيش في الدنيا بقلب زاخر ... يقظ المشاعر حالم مسحور :
في نشوة صوفية قُدسية ... هي خير ما في العالم المنظور !

معظم ديوانه موقوف على وصف احزانه بأدق تفاصيلها ، وذكر الوسائط الشتى التي حاول بها سُدى تخفيف شجونه . في « الجنة الضائعة » يقارن افراح طفولته بتباريح شبابه :

كم من عهود عذبة في عدوة الوادي النضيرْ ،
فضّية الاحجار ، مُذْهبة الاصائل والبكور ،...
ايامَ تفرش سُبُلَنا الدنيا باوراق الزهور ،
وتمر ايام الحياة بنا كأسراب الطيور !...

آه ! توارى فجريَ القُدسيّ في ليـــل الـــدهور .
وفنّي كـــما يغني النشيد الحلو في صـــت الاثير !
اوّاه ! قـــد ضاعت عليّ سعـــادة القلب الغرير ؛
وبقيتُ في وادي الزمـــان الجهنّم اذأب في المسير .
وادوس اشواك الحياة بقلبيَ الـــدامي الكسير !

يعيد تلك المقارنة في « رثاء فجر » ، ملمّحاً الى موت محبوبته :

يا ايها الغـــاب المنسّق بالاشعّة والورودْ .
يا ايها النور النقيّ وايهـــا الفجر البعيـــد .
اين اختفيت وما الذي اقصـــاك عن هذا الوجود؟...
آه لقـــد غنّى الصباح : فدمدم الليل العتيد .
وتألق النجم الوضيء : فأعتم الغيم الركود .
ومضى الردى بسعادتي ، وقضى على الحب الوليد !

لا يزال يبكي وينوح في قصائد عديدة على آلامه النفسية المبرحة . كأنه لا يدري انه يزيد بذلك شدتها : ويُضجر القُرّاء بفرط معالجته لنوع من الشعر الغنائي يُحزن القلوب ويخمد الهمم . يقول في « الدموع » :

يقضي العيش بين شوق ويأس : والمنى بين لوعـــة وتأسّ ...
لم اجد في الحياة لحناً بديعاً يـــتبيني سوى سكينة نفسي ؛
نشمت الحيـــاة الا غراراً تتلاشى بـــه اناشيد يأسي .

وفي « الاشواق التائهة » :

يا صميم الحياة ، كم انا في الدنيا غريب ، اشقى بغربة نفسي .
بين قوم لا يفهمون اناشيد فؤادي ولا معاني بؤسي :
في وجودٍ مكبّل بقيود ، تائه في ظلام شك وتحس !

وفي « الكآبة المجهولة » :

انـــا كئيبٌ ؛ انـــا غريبٌ :
وليس في عالم الكآبة مـــن يحمل معشار بعض ما اجدُ ؛
كآبتي مُرة ؛ وان صرختْ روحي ، فلا يسمعنّها الجسد !
كآبتي ذات قسوة صهرت مشاعري في جهنم الالم ؛
لم يسمع الدهر مثـــل قسوتها في يقظة قطّ ، لا ، ولا حُلُم !

بتوهم . وهو غائص في لجج احزانه وآلامه . ان جميع الناس متكعون على الدوام في دياجي وادي الدموع . وقد صرّح بذلك الوهم غير مرة . ولا سيما في « شجون » :

وخلال القصور ذات حزن . وبتلك الاكواخ انضاء بؤس .
والقضاء الأصم يمشي الناس ويقضي ما بين سيف وقوس :
هذه صورة الحياة : وهذا لونها في الوجود من أمس امس !

طفح كيل شجونه المتدحة بوفاة والده الحنون . وقد كان حبه الرقيق شعاعاً منعشاً في الدجى الحالكة . هكم منتظمات من رثاء الشاب لأبيه العزيز :

يا موت . قد مزّقت صدري وقصمت بالارزاء ظهري ...
وفجعتني في من أحب ومن اليه ابث سري ؛
واعدّه فجري الجميل . اذا ادلهمّ عليّ دهري ...
فقدت روحاً طاهراً شهماً يجيش بكل خير ...
وفقدت كفاً في الحياة يصد عني كل شر .
وفقدت وجهاً لا يعبّسه سوى حزني وضُرّي .
وفقدت نفساً لا تني عن صون افراحي وبشري ...
يا موت : ماذا تبتغي مني ؛ وقد مزّقت صدري ؟...
خُذني اليك . فقد تبخر في فضاء الهم عمري ؛...
خُذني اليك . فقد ظمئت لكأسك الكدر الأمرّ !

من استغاث بالموت في ميعة شبابه ، فلا شك في ان ضجره من الحياة قد بلغ اقصى مداه . ذلك ما نراه في « السآمة » :

سئمتُ الحياة وما في الحياة ؛ وما ان تجاوزتُ فجر الشبابْ ؛
سئمتُ الليالي وافجاعها وما شعشعت من رحيق بصاب ؛
فحطّمتُ كأسي والقيتها بوادي الأسى وجحيم العذاب !

قد حاول الشاب سُدى ، مثل مئات من امثاله التعساء ، ان يتخلص من فرط شقائه باتهاكه في عشق بنات حواء . باح لنا بنشوته الجنونية حين إقدامه على تلك المحاولة ، في « الساحرة » ، وهي من بنات الهوى البالغات

ذروة المهارة في اجتذاب امثاله الى فخاخهن طمعاً بالاصفر الرنان . فتتظاهر بالشفقة عليه وتقول بقصد إغوائه :

خلِّ عبء الحياة عنك وهيّا ... بتحيّا كالصبح طلق اديمهْ ...
واتل للحب والحياة اغانيك وخلِّ الشقاء تدمى كلومه .
واحتفني فانني لك حتى ... يتوارى هذا الدُّجى ونجومه ...
واقطف الورد من خدودي وجيدي ... ونهودي . وافعل به ما ترومه !...
وارتشف من فمي الاناشيد سكرى . ... فالهوى ساحر الدلال وسيمه !

اخذت الساحرة من الشابي كل مأخذ :

فرماها بنظرة غشيتها ... سكرة الحب والاسى وغيومهْ ...
والتقت عندها الشفاه وغنّت ... قُبَلٌ اجفلت لديها همومه !

يعود الشابي الى الترنم بنشوة ذلك الهوى في « الحاني السكرى » .

قد سكرنا بحبنا واكتفينا ؛ ... طفح الكأس . فاذهبوا ، ياسُقاةُ ؛
نحن نحيا فلا نريد مزيداً ؛ ... حسبنا ما منحتنا ، يا حياة !

« تحت الغصون » تدل بكل الوضوح على انه متيّم بحب المرأة ؛ فلا يأنف من تسمية قضاء نهمته منها اثماً مقدساً :

اي خمر رشفتُ ، بل اي نار ... في شفاه بديعة التكوين ؛
وردتها الحياة في لهب السحر ونور أضوى ، وظل الشجون ؛
اي إثم مقدّس قد لبسنا ... بُرده في مسائنا الميمون ؟

كان الشابي يرجو من تلك الملذات السافلة دواء شافياً لحزنه المضني ؛ فلم يجن منها سوى تفاقم اشجانه ، وقد اعترف بذلك في « أغنية الاحزان » اعترافاً صريحاً :

حطّمت كف الاسى قيثارتي ... في يد الاحلامْ ،
فقضت صمتاً اناشيد الغرامْ ... بين ازهار الخريف الذاويهْ ...
يئست الافراح افراح الحياهْ ؛ ... انها احلامْ ...
تخلب اللبّ بالحان عذابْ ... واغاريد كأملاك السماء ؛
ثم لا تلبث ان تذوي كما ... تذبل الازهارْ !

ضاقت مذاهبه ويئس من السعادة يأساً مطلقاً . وبلغ نفوره من الناس اقصى الحدود . فتوهم ان خير علاج لتخفيف وطأة اسباب العضال الابتعاد الكامل عن بني جنسه . اسمعوا هذيانه في « احلام شاعر » :

ليت لي ان اعيش في هذه الدنيا سعيداً بوحدتي وانفرادي .
اصرف العمر في الجبال وفي الغاب بين الصنوبر الميّاد .
ليس لي من شواغل العيش ما يصرف نفسي عن استماع فؤادي :
ارقب الموت والحياة واصغي حديث الآزال والآباد .
واغني مع البلابل في الغاب واصغي الى خرير الوادي ...
لا اغنّي نفسي باحزان شعبي . فهو حيّ يعيش عيش الجماد !

حبيات ان ينال منيته : وقد قال في « قيود الاحلام » :

وودّ ان احيا بفكرة شاعر . فأرى الوجود يضيق عن احلامي .
إلا اذا قطّعتُ اسباب مع الدنيا وعشت لوحدتي وظلامي .
في الغاب . في الجبل البعيد عن الورى حيث الطبيعة والجمال السامي ...
لكنني لا استطيع فان لي اماً يشد حنانها اوهامي :
واصغار إخوان يرون سلامهم في الكائنات معلقاً بسلامي :
فقدوا الاب الحاني : فكنت لضعفهم كهفاً يشدّ غوائل الايام .

لم يهتد الى علاج ناجع يخفف عنه فرط وطأة احزانه القتّالة : فتحتم عليه احتمال مضضها حتى الموت : هاكم ارشاده لنفسه في « السعادة » :

خُذ الحياة كما جاءتك مبتسماً ، في كفها الغار او في كفها العدمُ ،
وارقص على الورد والاشواك متئداً ، غنّت لك الطير او غنت لك الرُجُم ،
واعمل كما تأمر الدنيا بلا مضض ، والجم شعورك فيها ؛ انها صنم !
فمن تألم لم تُرحم مضاضته ، ومن تجلد لم تهزأ به القسم !
هذي سعادة دنيانا : فكن رجلاً ، ان شئتها ؛ ابد الآباد يبتسم !

هنا ايضاً نراه فريسة عمياء لمخيلته الجامحة ، فان التجلد الذي يفتخر به ويزعم الانتصار بواسطته على كل تباريح الحياة ومصائبها ، مستحيل لمن يجهل او يتجاهل مثله غاية وجودنا على الارض ، فينكر العناية الالهية التي لا تزال تساعدنا على احتمال ضيقاتنا ، ويدّعي بكفر وقح ان مولانا اللامتناهي اللطف والسخاء ، قد خلقنا ، لا للسعادة الابدية ، بل للشقاء المحض وللعدم

الدائم بعد الموت . نراه يترنم بقدرة تجلده المزعوم : وهو وليد كبريائه الناحتة : في « نشيد الجبار » :

سأعيش رغم الداء والاعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء :
ارنو الى الشمس المضيئة هازئاً ... بالسحب والامطار والانواء !...
اصغي لموسيقى الحياة ووحيها ... وأذيب روح الكون في انشائي .
وأصيخ للصوت الالهيّ الذي ... يحيي بقلبي ميّت الاصداء .
واقول للقدر الذي لا ينثني ... عن حرب آمالي بكل بلاء :
« لا يطفئ اللهب الموجّج في دمي ... موج الاسى وعواصف الارزاء :
« فاهدم فؤادي ما استطعت ، فانه ... سيكون مثل الصخرة الصماء :
« لا يعرف الشكوى الذليلة واليكا ... وضراعة الاطفال والضعفاء .
« وسيعيش جبّاراً يحدّق دائماً ... بالفجر . بالفجر الجميل الناشئ ! »

قد فرغنا من تحليل مواضيع قصائد الشابي : وخلاصة رأينا فيها انها مفعمة بالحزن المفرط العقيم : التشاؤم المطلق بازاء الحياة وبلاياها : احتقار الناس قاطبةً والرغبة الجنونية في قطع كل علاقة بهم . لا تنالك عن تأكيد كون تلك الاضاليل ناتجة عن جهله كمالات الله تعالى وقصده منح السعادة الابدية لجميع خلائقه الناطقة : بعد تجربتهم القصيرة في وادي الدموع . وايم الحق ان مواضيع ديوان الشابي لبعيدة عن غايات الشعر السامية بعد الثريا عن الثرى : لانها تُزيل الاتكال البنوي على خالقنا الحنّان من قلوب القرّاء وتفعمها حزناً وتشاؤماً يخمدان اقوى العزائم .

اما انشاء الشابي فهو مزدان في الغالب بالوضوح والانسجام : فضلاً عن عدة خيالات مبتكرة من امثال هذه : الشقي في الارض قلبٌ يومه ميّت وماضيه حي : اقتناص نوال : الفجر الضحوك : كهوف واجمة : قد جرفته يد الموت : حطمت كف الاسى قيثارتي : في روضة الحياة اشواك مُزقت بها زنابق نفسي : ابتسامات الحياة السافرة عن جلال الله .

بيد ان كثيراً من خيالاته مشين بالتصنع : حاكم بعض الامثلة عليه : وفي جملة من كثيب : انت ما نلتُ من كهوف الليالي (يقول ذلك للشعر) : كنتُ ضباباً من الرؤى يتهادى في ضمير الآزال والآباد : قوام يكاد ينطق بالالحان .

من عيوبه ايضاً كثرة الكلمات المائعة : والحشو (يرون الذل عاراً

وسبّة . تصدّع اغلال اخوان وتحطّم . انا سعيد برحلتي وانفرادي) . اغلاطه اللغوية غير قليلة : نبع (بمعنى ينبوع) : روح طاهر (روح مؤنثة) : غضبَ المنون (منون مؤنثة) . غاب (بمعنى غابة) : دخلتُ الى البلاد (دخل فعل متعدّ) .

خلاصة القول ان شعر الشابي من الدرجة الوسطى بمعانيه وبيانه . وربما كان ناظمه قد نزهه عن عدة شوائب ، لو طالت حياته .